

الحلقة (١٤)

ولا يزال الحديث بنا في باب شروط الصلاة، و موضوع هذه الحلقة استقبال القبلة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بين المشرق والمغرب **قِبْلَةٌ**" قال الحافظ ابن حجر بعد هذا رواه الترمذي وقواه البخاري.

وذكر الحافظ ابن حجر أيضاً في كتابه "التلخيص الحبير" حديث ما بين المشرق والمغرب قبله" قال رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً وقال حسن صحيح، وكما ذكر الصنعاني رحمه الله تعالى قال كان عليه أي على الحافظ ابن حجر هنا أن يذكر تصحيح الترمذي له على قاعدته، وذكر يقول: ورأيناه في الترمذي بعد سياقه له بسنده من طريقين، حسن إحداهما وصححها، ثم قال: "وقد روي عن غير واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم "ما بين المشرق والمغرب قبله" منهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين".

فهذا الحديث هو في ذكر شرط من شروط الصلاة وهو استقبال القبلة، واستقبال القبلة شرط من شروط صحة الصلاة، ومعنى ذلك أنه لو عُدَّ الشرط عُدَّ صحة الصلاة.

والمراد بالقبلة الكعبة، سُمِّيت قبلَةً لأن الناس يستقبلونها بوجوههم ويؤمنونها ويقصدونها. واستقبالها في الصلاة شرط لصحة الصلاة دل على ذلك قول الله تعالى: { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ }.

وأيضاً قوله تعالى: { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }.

وأما من السنة فيدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم للمسيء في صلاته (إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر).

فهذا النص بين النبي صلى الله عليه وسلم أنه ينبغي له أن يستقبل القبلة قبل أن يدخل في صلاته. وكذلك إجماع المسلمين، فقد أجمعوا على وجوب استقبال القبلة في الصلاة، والحكمة من استقبال القبلة هي أن يتجه الإنسان ببذنه إلى مُعَظِّمٍ بأمر الله سبحانه وتعالى وهو البيت، كما يتجه بقلبه إلى خالقه سبحانه وتعالى في السماء، فيكون للمصلي اتجاهان، اتجاه قلبي واتجاه بدني.

أما الاتجاه القلبي فهو إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما الاتجاه البدني فالى البيت الذي أمر الله سبحانه وتعالى بالاتجاه إليه وتعظيمه، وتعظيم البيت هو تعظيم لله سبحانه وتعالى، لأن الله هو الذي أمر بذلك، فامتثال أمره تعظيم له سبحانه وتعالى، واستقبال البيت هو كان بأمر الله سبحانه وتعالى، فما دام بأمر الله فوجب استقباله ووجب تعظيمه، وهو تعظيم لله سبحانه وتعالى.

بلا شك أن استقبال أو إيجاب استقبال القبلة أو استقبال الكعبة في الصلاة فيه مظهر من مظاهر اجتماع الأمة الإسلامية، ذلك أنه لو لم يكن هناك أمر بالاتجاه إلى هذا البيت، لكان الناس يصلون في مكان واحد في مسجد أو غيره كل يصلي على اتجاه، فمنهم من يصلي جهة الشرق، ومنهم من يصلي جهة الغرب، ومنهم من يصلي جهة الشمال، ومنهم من يصلي جهة الجنوب، فليس هناك من جهة يستقبلها الجميع، كل يستقبل على هواه.

لكن عندما أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالتوجه إلى البيت، صار هنا مظهر من مظاهر الائتلاف والتوحد، وأعجبني مقالة لأحد النصارى عندما نظر إلى الصلاة في المسجد الحرام منقولة في "التلفاز" يقول: ((أعجب من كثرة المصلين في المسجد -يقصد بذلك المسجد الحرام- فإذا كبر الإمام لحظات وتتحد الصفوف والاتجاه ويهدأ الناس ويخشعون)) هذا بلا شك مظهر من مظاهر الائتلاف، لو أن هؤلاء ليسوا في الصلاة، هل نستطيع أن نوحدهم هذا التوحيد في هذا الوقت اليسير؟ أبداً، لكن الله سبحانه وتعالى وحد اتجاههم فتوحدا وامتثلوا أمر الله سبحانه وتعالى، هذا مظهر من مظاهر الائتلاف ومظهر التوحد، لم يكن إذاً الأمر بالتوجه إلى الكعبة عبثاً من الله سبحانه وتعالى.

النبي صلى الله عليه وسلم كان في صلاته قبل الهجرة وبعد الهجرة أيضاً بستة عشر شهراً تقريباً كان يستقبل بيت المقدس، هذا كان بأمر الله سبحانه وتعالى، لما كان صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة كان يستقبل بيت المقدس ويجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فأين يكون موقف النبي صلى الله عليه وسلم على هذا؟

الآن الواقف عند الكعبة يريد أن يستقبل الشام، والكعبة بينه وبين الشام، فلا بد أن يكون موقفه بين الركنين، بين الركن اليماني والحجر الأسود، ويستقبل الكعبة، يكون بيت المقدس كذلك على اتجاهه.

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك حينما كان في مكة، فلما هاجر بقي على الأمر السابق بأمر الله سبحانه وتعالى باستقبال بيت المقدس، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتمنى أن يستقبل الكعبة، لكن هذا ليس بيده، أن يستقبل من ذات نفسه، النبي صلى الله عليه وسلم يأتيه الوحي ويؤمر من الله سبحانه وتعالى فينفذ الأوامر، فهو مبلّغ للتشريع عن الله سبحانه وتعالى، ولذلك أشار الله سبحانه وتعالى في الآية { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ } كأن النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يكون استقباله للبيت الحرام وللکعبة المشرفة، يقول الله سبحانه وتعالى: { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا } أي ما كان يتمناه النبي صلى الله عليه وسلم ويود أن يستقبله { قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }، فإذا هنا تغيرت القبلة وتحول الاتجاه، وذلك بعد الهجرة بستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً أو بين ذلك.

ثم بعد ذلك اتجه النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله سبحانه وتعالى في صلاته إلى الكعبة، وهذا ما جاء في الصحيح وغيره، **فالصلاة على هذا لا تصح بدون استقبال القبلة.** وكما تقدم أن استقبال القبلة شرط، والقاعدة الشرعية إذا تخلف الشرط تخلف المشروط فلا تصح بدونه، والدليل على هذا يدخل في القاعدة العمومية في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"، فمن استقبل غير القبلة فقد عمل عملاً ليس عليه أمر الله سبحانه وتعالى ولا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو إذاً مردود عليه، إذاً ما عليه أمر الله سبحانه وتعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم هو استقبال الكعبة، استقبال القبلة، فمن استقبل غيرها في صلاته فلا تصح إلا إن كان معذوراً، وسنأتي إليه إن شاء الله تعالى، أما مختاراً مقتدرأً فلا تصح صلاته إلا باستقبال هذا البيت.

إذا عجز الإنسان أو المصلي عن استقبال القبلة فما الذي عليه؟ فهل يكلف ما لا يطيق؟

النصوص الشرعية تدل على أن الله سبحانه وتعالى لن يكلف عباده ما لا يطيقون، فيقول الله سبحانه وتعالى: { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } ويقول سبحانه: { لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا } فالدين يُسر، وكانت التكليف على قدر الطاقة وجاء في الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم "إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم" فالتكليف على قدر الاستطاعة، فمن التكليف ما يستطيعها الناس، ومن التكليف ما لا يستطيعها البعض فيعجز عنها.

فالعاجز عن تنفيذ الأمر على الوجه الذي يكون لعموم الناس فينفذه على قدر الاستطاعة، ولذا جاء في الصلاة صلّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب، فإذا مراحل تدريب، فالصيام كذلك، صيام رمضان واجب، فإذا كان عاجزاً عن الصيام أفطر وقضى من أيام أخر، أو إذا كان مسافراً، وإذا كان المريض لا يُرجى بُرؤه ليس عليه إلا الإطعام تخفيفاً من الله سبحانه وتعالى.

العاجز عن استقبال القبلة، يسقط استقبال القبلة بعدة أمور منها:

كما تقدم العجز، إذا عجز إنسان من استقبال القبلة **لمرض**، إنسان في سريره وسريه على غير اتجاه القبلة، أو على فراشه وفراشه على غير اتجاه القبلة، ولم يستطع التوجه وليس هناك من يحوله جهة القبلة فليصلي على أي وجه كان، حتى لو كانت القبلة خلف ظهره، فيصل ولا يترك الصلاة. أو كان **مربوطاً** ووجهه إلى غير القبلة ولا يستطيع استقبال القبلة، قد يكون أسيراً أو نحو ذلك، في هذه الحالة يصلي على أي وجه وعلى أي جهة كانت، لأن هذا هو الذي يستطيع ولا يستطيع غير هذا، والله سبحانه وتعالى يقول: { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } فإذاً هذا حد الاستطاعة عنده، فيصل مستقبلاً ما كان تلقاء وجهه، والله سبحانه وتعالى يعذره في ذلك.

وكذلك من كان مثلاً مثل هذه **الأعذار في الطائفة** ولا يجد مكاناً فيها يستطيع أن يصلي فيه إلا مكان مقعده الذي عليه كرسیه الذي عليه، إن وجد مكاناً يصلي فيه فنعم قام وصلى، فإن لم يجد مكاناً إلا

هذا المكان الذي هو فيه وكان متجهاً إلى غير القبلة، كان اتجاه الطائرة لاتجاه غير القبلة والقبلة خلفهم ويخشى أن يخرج الوقت قبل أن يصل إلى المكان الذي يقصده، صلى في مكانه حتى وإن لم يكن متجهاً إلى القبلة، لأن هذا هو ما يستطيع فعله، فلا يؤخر الصلاة عن وقتها فليصل على أي وجه وعلى أي اتجاه كان.

ومن الأمور التي يسقط بها استقبال القبلة:

الخوف: فالخائف إذا كان حال قتال العدو، أو هرباً من العدو، أو من سيل أو غير ذلك، ووجهته إلى غير القبلة، صلى حسب ما توجه إليه، لقوله الله سبحانه وتعالى: **{ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا }** والخائف سواء كان راكباً أو راجلاً يتوجه حيث مأمنه، بحيث لو استقبل القبلة يخاف من وراءه، العدو قريب منه، أو السيل قريب منه، أو من يهرب منه يخشى اللحاق به، فإذا صلى على وجهته يصلي وإن كان إلى غير القبلة، فإذا الخوف عذر للمصلي في ترك استقبال القبلة إذا تحقق ذلك، إذا تحقق الخوف ولم يجد مجالاً إلا هذا

الأمر الثالث الذي يسقط استقبال القبلة بها صلاة النافلة في السفر حال سيره.

لا بد من ضبط هذه الأمور نافلة، في سفر، حال سيره. وذكر بعضهم أن يكون راكباً، والمسألة خلافية، ولعل هذا نأى إليه في حديث عمرو بن ربيعة إن شاء الله تعالى بعد هذا الحديث، إنما هنا المسافر يصلي النافلة حال سيره هل له ذلك؟ نعم، يصلي حيث اتجهت به راحلته، ومعنا فيه حديث عمرو بن ربيعة وسيأتي معنا، وهو في المنهج لأن فيه بعض التفصيلات، فنترك التفصيلات إلى ذلك الحديث.

إنما نقول في صلاة النافلة في السفر، يسقط فيها شرط استقبال القبلة، هنا لا بد أن يكون كما تقدم نافلة، سفر، سائراً في الطريق.

أما لو كان في مكان جالساً فيه فهذا يصلي على ما استطاع، وأما إذا كان على ظهر الطريق فيصل، يلحق بالدابة، وقد ذكر الحديث ذلك -ذكر الدابة- والفقهاء كذلك يذكرون الدابة، ما حل محلها في هذه الأزمان المراكب التي حلت محل الدواب، الطائرات، السيارات، القطارات، السفن سيأتي لها كلام آخر إن شاء الله تعالى في حديث عمرو بن ربيعة.

فإذا الإنسان في مثل هذه الحالة إذا كان في سيارة مسافراً، ووجهته إلى غير القبلة، وأراد أن يتنفل حال سيره فله ذلك ويصلي النافلة ويتجه لغير القبلة، وإن كان بعض العلماء ألزم عليه أو أوجب عليه أن يستقبل القبلة حال تكبيرة الإحرام، ثم بعد ذلك يتجه على وجهته حتى لو كان لغير القبلة، والبعض لم يشترط هذا، لعل هذا نأى كما قلت في الحديث القادم.

فالمسألة كما قلت فيها خلاف، والبعض ضعف حديث أنس رضي الله عنه الذي يبين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستقبل القبلة حال الإحرام ثم يتجه حيث اتجهت به راحلته.

فإذا تبين هنا أن القبلة شرط لصحة الصلاة، لا تصح الصلاة بدون هذا الاستقبال، ويسقط هذا الاستقبال أو هذا الشرط في مواطن تقدم ذكرها وهي: العجز، والخوف، وصلاة النافلة حال السير في الطريق.

ماذا يلزم المعاین من استقبال القبلة؟

المعاين هو الذي يرى الكعبة بعينه، فيلزمه أن يستقبل عين الكعبة، ولا يجزئه غير ذلك، فلا بد أن يكون بكامل بدنه متجهاً إلى الكعبة، هذا هو المعاین: هو من يعاينها بعينه، من يراها بعينه. وأما من بعدت جهته أو من بعد مكانه عن الكعبة فيلزمه استقبال جهة الكعبة لا العين.

فإذا يتبين هنا: إذا كان معايناً للكعبة يراها، في المسجد الحرام، أو كان خارجه وهو يراها قد يكون في مكان مرتفع مع وجود البنيان وهو يراها، يجب عليه أن يستقبل عين القبلة، ولا يجزئه غير ذلك، ولو انحرف عنها يميناً أو يساراً وهو يراها وجب عليه إعادة الصلاة، صلاته لا تصح، لأنه هنا فقد الشرط ومتى فقد الشرط ذهب المشروط وهو الصلاة.

وهذا معنى كلام الفقهاء عندما يقولون "وفرض من قرب من القبلة استقبال عين" فالقرب هنا لم يحدد ولكن يحدد بالمعاينة أنه يرى الكعبة.

طيب لو كان بالمسجد الحرام ولكنه لا يراها؟ بلا شك إذا كان في المطاف في الصحن حتماً يرى الكعبة، إذا كان في الأدوار الثانية أو على السطح مثلاً وكان في المقدمة يرى الكعبة هذا بلا شك هؤلاء حتماً يجب عليهم يستقبلون عين الكعبة.

لكن إذا كان بعد ذلك، في مؤخرة الصفوف مثلاً على السطح، حتماً إذا كان في مؤخرة الصفوف لن يرى الكعبة، فهو يستقبل على وجهة الكعبة، ما يغلب على ظنه أنها في هذه الجهة فيصلي إليها.

وقد وضع الرخام الموجود الآن مخططاً مدوراً مقوساً على استقبال القبلة، فهذا من باب التيسير، وجزى الله القائمين على ذلك والفاعلين له خيراً، هذا يسر على الناس حتى وإن كان خارج المسجد يعني في الساحات أيضاً ووضعت بهذا، فمن كان عنده مثل هذا التخطيط ولم ير الكعبة فهو عليه، وفي هذه الحالة نقول أنه استقبل الكعبة ولا يلزمه أن يرى، وإنما يلزمه استقبال العين بالذات إذا كان يرى ويعلم.

قد يكون أيضاً في الداخل وأمامه بعض الأعمدة الكبيرة، ولا يستطيع أن يتحول من هذا المكان، ما وجد إلا هذا المكان، فهو يصلي على وجهة الكعبة حتى وإن لم يرها، حتى لو تغير أو انحرف قليلاً يمينه أو يسرى ولم يرَ فحينئذٍ فصلاته صحيحة على القول الراجح.

فإذا أمكنه المشاهدة وجب عليه إصابة العين، وإن كان لا يمكنه ذلك سواء كان حساً أو شرعاً، ففي هذه الحالة تلزمه الوجهة.

البعيد أيضاً لم يحدد البعد، ولكن كما أسلفنا هو الذي لا يشاهد عين الكعبة سواء كان قريباً، أو

كان بعيداً، يعني بعيداً قد يكون خارج الحرم قد يكون خارج مكة، في أي بلد من بلدان المسلمين، وقد يكون قريباً ولكنه أيضاً لا يرى، ففي هذه الحالة لا يمكنه المشاهدة، وإنما يلزمه إصابة الجهة، والجهة التي حددها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء التحديد في هذا الحدث "ما بين المشرق والمغرب **قبلة**" وهذا القول لمن كان مثل أهل المدينة يتجهون في صلاتهم إلى جهة الجنوب، الكعبة عندهم في جهة الجنوب، فما بين المشرق والمغرب قبلة، مائة وثمانون درجة - ١٨٠ - كل هذه قبلة والله الحمد، وهذا ما نص عليه الكتاب ما بين المشرق والمغرب قبلة.

أيضاً من كان يستقبل في صلاته جهة الشرق وكانت الكعبة عنه جهة الشرق، نقول ما بين الشمال والجنوب قبلة، وأيضاً مثله من كان في جهة الشرق والكعبة عنه جهة الغرب يستقبل جهة الغرب فكذلك ما بين الشمال والجنوب قبلة.

إذا التحديد بالوجهة، كما يقول أصحاب الرياضيات والحساب: مائة وثمانون درجة هذه هي وجهة القبلة فيستقبل تلك الجهة لأنه لا يستطيع إلا هذا، والله سبحانه وتعالى ما جعل علينا في الدين من حرج، وما كلف العباد ما لا يستطيعون، وهذا الذي يستطيعون، ولعل البعض ذكر في محراب النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان على القبلة هذا بوحى من الله سبحانه وتعالى، وعلى العموم يبقى غير ذلك مجال اجتهاد في تحديد الجهة ثم يتجه إلى ذلك.